الصاعقة الرابعة والخمسون: غيري بأكثرِ هذا الناسِ ينخدعُ(*)

غَيري بأكثرِ هذا الناسِ ينخَدِعُ ... إن قاتلوا جبنوا أو حدَّثوا شجُعُوا

أهلُ الحفيظةِ إلا أنْ تجرِّبهم ... وفي التَّجاربِ بعدَ الغيّ ما يزعُ

وما الحياةُ ونفسي بعدمَا علمتْ ... أنَّ الحياةَ كما لا تشتهي طَبَعُ(١)

ليس الجمالُ لوجهٍ صحّ مارنهُ، ... أنفُ العزيزِ بقطعِ العزِّ يُجتدعُ(٢)

أأطرحُ المجدَ عن كتفي وأطلُبُهُ ... وأتركُ الغيثَ في غِمْدي وأنتجعُ(٣)

والمشرفيَّةُ لا زالتْ مشرّفةً ... دَواءُ كلِّ كَريمٍ أو هيَ الوجعُ

وفارسُ الخيل من خفتْ فوقَّرَهَا ... في الدربِ والدمُ في أعطافِهِ دُفعُ

فأوحدتْه وما في قلبه قلقٌ ... وأغضبتْهُ وما في لفظهِ قذعُ(٤)

بالجيشِ تمتنعُ السادات كلُّهمُ ... والجيشُ بابنِ أبي الهيجاءِ يمتنعُ

قاد المقانبَ أقصى شُربِها نهلٌ ... على الشَّكيمِ وأدنى سيرِها سرعُ(٥)

لا يعتفي بلدٌ مسراهُ عن بلدٍ ... كالموتِ ليس له ريٌّ ولا شبعُ

(*) مناسبة القصيدة: قالها وقد ظفر بسيف الدولة في غزوة السنبوس.

(١) الطبع: الدنس والعيب.

(٢) المارن: الأنف.

(٣) الانتجاع: طلب مواقع الغيث.

(٤) القذع: الفحش.

(٥) المقانب: جماعات الخيل. النهل: الشرب. الشكيم: جمع شكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

حتى أقامَ على أرباضِ خرشنةٍ تشقى به الرومُ والصلبانُ والبِيَعُ[١]

مخلّى له المرجُ منصوباً بصارخةٍ له المنابرُ مشهوداً بها الجُمَعُ[٢]

يُطمِّعُ الطيرَ فيهم طُولَ أكلِهِمِ حتى تكادُ على أحيائهمْ تَقَعُ

ولو رآه حَوارِيّوهمُ لَبَنَوْا على محبته الشرعَ الذي شَرَعُوا

لام الدمستقُ عينيْه وقد طَلَعَتْ سودُ الغمامِ فظنُّوا أنها قَزَعُ[٣]

فيها الكماةُ التي مفطومُها رجلٌ على الجيادِ التي حوليُّها جَذَعُ[٤]

تذري اللُّقانُ غباراً في مناخرِهَا وفي حناجرِها من آلسٍ جُرَعُ[٥]

كأنهَا تتلقّاهُمْ لتسلكهُمْ فالطعنُ يفتحُ في الأجوافِ ما يسعُ

تهدي نواظرَها والحَربُ مظلمةٌ مَن الأسنةِ نارٌ والقنا شمعُ

دونَ السَّهامِ ودونَ القرّ طافحةٌ على نفوسهمِ المقورّةُ المزعُ[٦]

إذا دعا العلجُ علجًا حالَ بينهما أظمى تفارِقُ منه أختها الضلعُ[٧]

أجلُّ منْ ولد الفقّاسِ منكتفٌ إذ فاتهُنَّ وأمضى منهُ منصرعُ[٨]

---

(١) الأرباض: النواحي. خرشنه: بلد بالروم.
(٢) صارخة: بلد.
(٣) القزع: القطع من السحاب.
(٤) الحولي: الذي أتت عليه سنة. الجَذَع: الذي أتت عليه سنتان.
(٥) اللقان: اسم موضع. آلس: نهر على مسافة منه.
(٦) السهام: وهج الصيف. المقورة: الضامرة. المزع: المسرعة.
(٧) الأظمى: صفة من صفات الرمح.
(٨) الفقاس: جد الدمستق.

وما نجا من شفارِ البيضِ منفلتٌ ... نجا ومنهنَّ في أحشائه فزعُ

يباشرُ الأمنَ دهراً وهو مختبلٌ ... ويشربُ الخمرَ حولاً وهو ممتقعُ

كمْ منْ حشاشة بطْريقٍ تضمّنَها ... للباتراتِ أمينٌ ما له ورعُ

يُقاتلُ الخطوَ عنه حينَ يطلبُهُ ... ويطردُ النومَ عنه حينَ يضطجعُ

تغدو المنايا فلا تنفكُّ واقفةً ... حتى يقولَ لها عودي فتندفعُ

قلْ للدمستقِ إنَّ المسلمينَ لكمْ ... خانوا الأميرَ فجازاهم بما صنعُوا

وجدتموهمْ نياماً في دمائكمُ ... كأنّ قتلاكمُ إياهمُ فجعُوا

ضعفى تعفّ الأيادي عنْ مثالهم ... منَ الأعادي وإنْ همُّوا بهم نزعُوا

لا تحسبوا منْ أسرتم كانَ ذا رمقٍ ... فليسَ يأكلُ إلا الميتةَ الضبُعُ

هَلاّ على عَقبِ الوادي وقدْ طَلَعَتْ ... أُسْدٌ تمر فرادى ليسَ تجتَمعُ

تَشُقّكُمْ بفَتَاهَا كُلُّ سلهبةٍ ... والضربُ يأخذُ منكمْ فوق ما يدعُ

وإنما عرَّض اللهُ الجنودَ بكم ... لكي يكونوا بلا فسلٍ إذا رَجعوا[1]

فكلُّ غزوٍ إليكمْ بعد ذا فلهُ ... وكلُّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التبعُ

تمشي الكرامُ على آثارِ غيرِهم ... وأنتَ تخلقُ ما تأتي وتبتدعُ

وهل يشينكَ وقتٌ كنتَ فارسَهُ ... وكانَ غيرَك فيه العاجزُ الضَّرَعُ

من كان فوقَ محلِّ الشمسِ موضعُهُ ... فليسَ يرفعُهُ شيءٌ ولا يضعُ

---

(١) الفسل: الرذل الذي لا مروءة له.

لم يُسلِم الكرُّ في الأعقابِ مهجتَهُ ... إنْ كانَ أسلمَها الأصحابُ والشيعُ[١]

ليتَ الملوكَ على الأقدارِ معطيةٌ ... فلمْ يكنْ لدنيءٍ عندَها طمعُ

رضيتَ منهمْ بأن زرتُ الوغى فرأوا ... وأن قرعتَ حبيكَ البَيْضِ فاستمعوا[٢]

لقد أباحَكَ غِشًّا في معاملةٍ ... منْ كنتَ منهُ بغيرِ الصدقِ تنتفعُ

الدهرُ معتذرٌ والسيفُ منتظرٌ ... وأرضُهُمُ لكَ مصطافٌ ومرتبعُ

وما الجبالُ لنصرانٍ بحاميةٍ ... ولو تنصَّرَ فيها الأعصمُ الصَّدعُ[٣]

وما حمدْتُكَ في هولٍ ثبتَّ بهِ ... حتى بلوتُكَ والأبطالُ تمتصعُ[٤]

فقدْ يُظَنُّ شجاعًا من بهِ خَرَقٌ ... وقد يُظَنُّ جبانًا من به زَمَعُ[٥]

إنّ السلاحَ جميعُ الناسِ تحملهُ ... وليسَ كلُّ ذواتِ المخلبِ السَّبُعُ

(١) يُسلِم: يخذل. الشيع: الأتباع.

(٢) حبيك: جمع حبيكة: البيضة من حديد تلبس على الرأس.

(٣) الأعصم: الوعل الذي في إحدى يديه بياض. الصدع: الفتيّ.

(٤) تمتصع: تذهب هاربة.

(٥) الخرق: الخفة والطيش. الزمع: الارتعاد.